من الخزانة الشرقية

بقلم حبيب زيات

شهداء النصرانية في الاسلام

للصلحاء والقديسين والشهداء في النصرانية تراجم مجموعة في كتاب يقال له سنكسار Synaxarion اي ما يُقرأ في الجماعات . وكله او جلّه معرب عن الرومية . ومنه عدة مخطوطات في الخزائن الاوربية . ويغلب على هذه التراجم الغلوّ والميل الى الإغراب وخرق العادات والتهويل في رواية العجائب والكرامات . حبًّا بالموعظة والترويض . فلا تكاد تخرج في بعض اقسامها وروايتها عن الاساطير والحكايات . ولا تصلح الا فيما ندر للنقد والتاريخ . ومن الغريب انه لم يقم بين رجال الدين او غيرهم في الشرق من رأى ، فيما نعلم ، تدوين شيء من اخبار القتلى الذين ماتوا في سبيل مسيحيتهم بحكم من قضاة الشرع . او بيد العامة في الفتن والثورات . ولا يكاد يخلو منهم عصر او مصر . وقد روى الامام ابو الريحان البيروني اسم واحد منهم في جريدة الاعياد النصرانية التي اوحى اليه علمه واطلاعه الواسع نقلها في كتابه الآثار الباقية . ودعاه يوحنا المَرْوَزي . نسبةً الى مدينة مرو الرّوذ في خراسان . وعنده انه كان من الملكانية اي من الملكيين . اورد ذكراه اي تذكاره في الرابع عشر من تموز . وقال عنه : الحديث المقتول في زماننا (ص ٣٠٠) اي في النصف الاول من القرن الخامس للهجرة او القرن الحادي عشر للمسيح .

وفي جملة هذه الجريدة اسم «انطونيوس الشهيد» من العرب المسلمين المتنصرة فيما يقال . تقل ذكراه في التاسع والعشرين من كانون الاول وقال : « زعموا انه ابو روح ابن عم هرون الرشيد . وانه تنصر بعد الاسلام . فعذبه هرون . وله عندهم قصة طويلة عجيبة ما سمعناها ولا قرأناها او مثلها في كتب الاخبار

والتواريخ . على ان النصارى قوم سمّاعون مصدقون لمثل ذلك . وخاصة ما يتعلق بدياناتهم . غير ناظرين من جميع الجهات في تصحيح الاخبار وتحقيق الآثار» (ص ٢٩٢) وقد عثرنا على رواية من هذه القصة الغريبة في مجلد من الرقوق في خزانة لوندرة وهو الآتي ذكره قريباً .

ومن شهداء نصارى العرب الملكيين في ايام الخليفة الاموي هشام بن عبد الملك رجل من إياد من بني حُذافة كان هاجر الى الروم وصار في جملة مقاتلتهم . روى ياقوت خبره الصحيح عن خالد بن عمير بن عبد الحباب السُلمي . قال :

«كنا مع مسلمة بن عبد الملك في غزوة القسطنطينية . فخرج الينا في بعض الايام رجل من الروم يدعو الى المبارزة . فخرجت اليه . فلم أرَ فارساً مثله . فتجاولنا عامة يومنا . فلم يظفر واحد منا بصاحبه . ثم تداعينا الى المصارعة . فصارعت منه اشد الناس . فصرعني وجلس على صدري ليذبحني . وكان رسن دابته مشدوداً في عاتقه . فبقيت اعالجه دفعاً عن روحي وهو يعالجني ليذبحني . فبينما هو كذلك اذ جاشت (١ دابّته جيفة جذبتهُ عني ووقع من على صدري . فبادرت وجلست على صدره . ثم نفست به عن القتل واخذته اسيرًا . وجئت به الى مسلمة . فسأله فلم يجبه بحرف . وكان اجسم الناس واعظمهم . واراد مسلمة ان يبعث به الى هشام وهو يومئذ بحرّان . فقلت ولمن الوفادة ؟ فقال انك لأحق الناس بذلك . فبعث به معي . فاقبلت اكلّمه وهو لا يكلمني . حتى انتهيت الى موضع من ديار مضر يعرف بالجريش وتلّ بحرى . فقال لي ماذا يقال لهذا المكان فقلت هذا الجريش وهذا تل بحرى . فانشأ يقول :

ثوى بين الجريش وتل بحرى (٢ فوارس من مُغارة غير ميلِ
فـلا تجزعون إن ضرّاءَ نابت ولا تفرحون بالخير القليلِ

فاذا هو افصح الناس . ثم سكت فكلّمناه فلم يجبنا . فلما صرنا الى الرها . قال دعوني اصلّي في بيعتها . قلنا افعل . فصلى . فلما صرنا الى حران . فقال اما اخذا لاول مدينة بنيت بعد بابل . ثم قال دعوني استحمّ في حمامها واصلي . فتركناه . فخرج الينا كأنه برطيل (٣ فضة بياضاً وعظماً . فادخلته الى هشام واخبرته جميع قصته . فقال له من انت . فقال انا رجل من اياد ثم احد بني حذافة . فقال له اراك غريباً لك جمال وفصاحة . فأسلم تحتن دمك . فقال ان لي

---

١) اي مالت واغرفت

٢) تل بحرى هو تل بحرى نُسب اليه البطريرك المؤرخ ديونيسيوس التلمحري الذي نشر تاريخه الاب شابو في السريانية مع ترجمته الى الفرنسية Chronique de Denis de Tell-mahré, quatrième partie. Paris, 1895

٣) البرطيل حديد طويل صُلب خافةً . يثقر به الرحى .

ببلاد الروم اولاداً. فقال وفداك اولادك ونحسن عطائك . قال ما كنت لارجع عن ديني . فأقبل به وأدبر . وهو يأبى . فقال لي اضرب عنقه . فضربت عنقه » (١

وقد تتبعنا كل السنكسارات المخطوطة التي عثرنا عليها فلم نهتدِ الى شيء فيها من انباء شهداء النصرانية في الاسلام خلا خبرين فقط مختصرين جداً وجدناهما في المخطوط رقم ٢٥٤ في خزانة باريس . ويظهر انه من القرن السادس عشر . اضاف اليه الناسخ ما بلغه من وقائع القتلى المسيحيين المعروفة في ايامه . احدهم رزق الله بن نبع من مدينة دمشق . كان مباشراً في ديوان النائب ازدمر في طرابلس . واستشهد فيها في اول شباط (٤٥١٣٣) وهذا النائب هو لا شك ازدمر العمري الناصري الشهير بالخازن او الخازندار . ولّاه السلطان الملك الاشرف شعبان نيابة طرابلس سنة ٧٦٤ ثم نقله الى نيابة صفد سنة ٧٦٦[٢] . فيكون من ثم استشهاد رزق الله بن نبع حدث بين سنتي ١٣٦٣ و١٣٦٥ للميلاد . والثاني « القديس الشاهد في الكهنة المقوي اسحق من قرية حناك (استنية افخاتيطا) قتل في ظاهر حماة في الحادي والعشرين من آب (٤٥٢٨٨) وقد غفل الكاتب عن تعيين السنة وتعريف سبب قتله . وليس في كلا الخبرين ما يعول عليه لفائدة التاريخ .

وفي كتاب سيَر البطاركة الاقباط في حوادث سنة ٩٣٤ للشهداء (١٢١٨م) تفصيل استشهاد احد النصارى الملكيين في القاهرة . وهذا نص خبره بحرفه . قال :

« في هذه الايام امر السلطان (الملك العادل) عز نصره بعرض المسجونين . فعُرضوا عليه . فكان فيهم رجل يسمى اسدًا . وكان حائكًا . وكان قد خاصم مع امرأته فحملته الى الشرع فجرت منه لفظة شُهد عليه فيها بالاسلام . وانكر هو فاعتُقل . وبقي في الاعتقال مدة سنة الى هذا الاوان . فاحضره السلطان ورغبه ووعده بمال وكسوة ان هو بقي على الاسلام . فامتنع وقال ما انا الا نصراني وعلى نصرانيتي اموت . فقال له ويلك تلفظ بالشهادة قدامي . واينما اردت امضِ افتصل بنفسك . فقال لا كان هذا ابدًا . ولم تزل الحال تتردد بينهم وبينه الى يوم الخميس المجيد . فامر بضرب رقبته . فاحضره والي القاهرة عند باب زويلة . واحضر الشهود . وعرض عليه الاسلام قدامهم . فامتنع وقال أنجزوني بالله عليكم ولا تردوني الى الحبس . فتقدم اليه احد

١) معجم البلدان ، طبعة اوربة ، ١ : ٨٦٩-٨٧٠

٢) تاريخ ابن اياس ، طبعة مصر ، ١ : ٢١٣ ؛ والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي ، طبعة ليدن ، ٥ : ١٦١

ممالكه فضحه بالسيف الى ان غاب فيه اربع اصابع. فقال له كسل. فقال له الملك مد عنقك. فمدّه. فضربه ضربة طارت بها رأسه عن جسده. وعُلّق بدنه على باب زويلة. وعجّب الناس الله على صبر هذا الرجل وحسن ايمانه. وبقي معلّقاً ثلثة ايام. وبعد ذلك حضروه واخرجوه خارج المدينة واخذوا ان يحرقوه. ولم يُلقَ عليه من الوقود ما يفي باحراقه فبقي جسده سالمًا. واجتمعت جماعة من النصارى المباركين وسألوا الوالي فيه. فاعطاهم اياه فاخذوه ودفنوه في كنيسة الملكية التي بحارة الروم الحمرا. وشكروا الله الذي ثبّت قدّيسيه على الايمان باسمه الى آخر نفس.»(١)

ومثل هذه الاستشهادات كثيرة في كل ديار الاسلام. ويظهر ان كتبة النصارى انما تحاموا نقل اخبارها وتدوينها تقيّة وحذرًا من العقوبة والانتقام. ولذلك آثر قوم كتابة اكثرها بالرومية.

ومن المخطوطات المعربة عن الرومية المجموع الذي اشرنا اليه آنفاً في خزانة بريتيش موزيوم رقم Oriental 5091 وهو من رقوق قديمة سقط قسم منها وفاتنا معرفة تاريخها بالضبط واسم كاتبها ومعربها. على ان في اولها اربعة رقوق بخط غير خط الكتاب. وهي فهرست ميامر وقصص واخبار لا تنطبق على مضمون المجموع بالتمام. وفي صدر الفهرست تعليق وود بذيله ما صورته بالحرف:

«وكتب الخاطي المسكين النير مستحق بان يدعا مرقس. بتاريخ يوم الجمعة السادس عشر من صفر سنة ثمان وستين وخمسماية (١٣ دسمبر = كانون الاول ١١٦٦)»

ويؤخذ من خط الرقوق ونوع قلمها ان كتابتها قد تكون من القرن العاشر او الحادي عشر. وفي جملة اخبارها «قصة ابائنا القديسين الذين قتلوا برباية وطوروسيا الشهدآء المباركين» (الرق ٥٢—٥٣) وبآخر القصة هذه الحاشية:

«فسّر هذا الكتاب بالدرية من الرومية. في شهر ربيع سنة خمسة وخمسين وماية من سني العرب (٧٧١ م) فمن قراه او نسخه فليستغفر للذي فسر ومن كتب. غفر الله لهما»

وفي الرقوق ١٠٠—١٠٣ «قصة وشهادة روح الشريف المسمى انطونيوس بالرقة» وهو ابو روح ابن عم الرشيد الذي سبق ذكر البيروني له. اولها:

«كان في زمان الرشيد ملك العرب رجل من اشراف العرب اسمه روح. وكان نازل بدمشق في موضع يقال له النيرب في دير هناك على اسم الشاهد المبارك تاودرس وكان هذا الفتى القرشي كثير ما كان يولع في الكنيسة بسرق القربان المقدس ويأكله ويشرب ما يبقى من دم سيدنا...»

١) سير البطاركة. خزانة باريس ٣٠٢، ص ٢٢١

وفي المتن عدة اوهام في النسخ وتحريفات شتى.

وقد اخترنا من هذه الاخبار والحكايات قصة عبد المسيح المستشهد في الرملة انموذجاً من المجموع وهذا نصها بلهجتها واغلاطها القديمة:

« المسيح الهي ورجاي والسيدة مارتقريم شفيعتي

« هذه قصة عبد المسيح الذي استشهد بالرملة في ملك الامويين

« كان رجل من نصارى نجران يقال له قيس بن ربيع بن يزيد الغساني من خيار عرب نصاراها حسن العبادة في النصرانية عالم بما له وعليه . الى ان خرج مدة من الزمان وهو ابن عشرين سنة يريد الصلاة بيت المقدس مع قوم مسلمين من اهل نجران يريدون النزو . فلم يزالوا في صحبتهم له يبرّوه ويستهولوه الى ان صيّر طريقه الى النزو معهم . وكان من ارمى الناس بسهم واشده في قتالي بسيف او رمح . فحسنته الجهالة والحداثة وخبث اصحابه الى الدخول مع الغزاة الى ارض الروم فجاهد معهم وقاتل وانتهب واحرق ووطئ كل محرّم كعنتهم . وصلّى معهم وصار على الروم اشد غيظاً واقسى قلباً منهم . فاقام على ذلك ثلثة عشر سنة ينزو الروم كل سنة ولا يجرح الثغور .

فلما مضت له ثلثة عشر سنة خرج يريد بعض مدن الشام يسبي فيها . فدخل نصف النهار الى مدينة بعليك فاستقام على فرسه حتى نزل الى جانب كنيسة ثم دخل لينظر الى الكنيسة فاذا القسيس جالس على باب الكنيسة يقرا في الانجيل فجلس وتسمعه . ثم قال له اي شيء تقرأ فقال الانجيل . فقال فسّر لي ما تقرا بالرومية ففسر له . « ان من احب اب او ام او اخ او اخت او شي على الله فليس هو له باهل » وما يشبه ذلك . فبكى وتذكر ما كان فيه والى اي شي صار . فلما اكثر البكا قال له القسيس اي شي دهاك يا فتى . فقال له النصراني انا كنت مدة من اصحاب هذا الانجيل فاما اليوم فانا من اعدائه . وانه قص على القسيس قصته (f° 103a) كلها . فقال له القسيس ما بي شي يمنعك ان كنت كما ذكرت نادم ان ترجع وتتوب . فقال له الرجل ان الامر عظيم جدا . وانا اعلم من نفسي ما لا تحتمله الجبال والارضين . فقال له القسيس ان الله هو احمل من الجبال او الارضين . ألم تسمعه كيف يقول في الانجيل ان الذي لا يستطاع عند الناس فهو عند الله يستطاع . واذ قال ايضاً ان الله يفرح برجعة خاطي واحد اكثر من مائة صدّيق الذين لم يخطوا . نعم يا حبيب فاعلم ان الله اليوم اسرع تعطفاً منا الى الرجعة اليه . وانت قد قرات كما تخبرني الانجيل . فاذكر اللص والابن الشاطر .

وان ذلك الشاب قام وصلى في الكنيسة واخرج سلاحه قدام المذبح وعاهد الله انه لا يعود الى شي مما كان فيه . وان القسيس صنع له قيسون (Ἀγιασμός) اي تمحيص غفران من الذنوب وانه خرج وباع فرسه وتصدق بثمن سلاحه وفرسه على المساكين . وقدس له القسيس وقرّبه وصلى عليه وودّعه وخرج الى يارشليم قاصداً . فلما وصل لبس السواد ودخل

الى البطريرك أنبا يَنّه (١) فاخبره بقصته فبسطه وفرح به وصلى عليه . وارسله الى سيق ماري سابا الى رأس الدير ليرهّبه فمضى الى ثمّ وترهب وصيّره رأس الدير الى معلم روحاني قديس

فلما اقام خمس سنين خرج فطاف الديارات التي حول بيت المقدس وخرج الى طور سينا فاقام ثمّ سنتين في عبادة شديدة وخدمة للرهبان وحرص عليهم حتى انه كان يتردد الى أيلة من اجل خراج ضيعة قمر الطور . ومن اجل من هناك من نصارى اهل فاران ورواية حتى احبوه اهل تلك البلاد وصيروه اهل الطور اقنوم (ὑπόστασις) عليهم خمسة سنين . ثم انه احب ان يظهر امره فاتى الى الرملة ومعه راهبين خيّرين قد ابذلوا انفسهم معه ودرنه . فكتب كتاب فيه انا قيس بن ربيع بن يزيد النصراني (Ps.Io.13) النجراني ومن قصتي كذا وكذا وقد تنصرت وترهبت زهد في الاسلام ورغبة في النصرانية . وانا في كنيسة الرملة نازلا فان اردتموني فاطلبوني فيها . والقى الكتاب في مسجد الجامع بالرملة . ثم انه مضى هو والراهبين فجلسوا في الكنيسة السفلى ماري قورقوس (جرجس) بالرملة فلما قرؤا المسلمين الكتاب في المسجد تسلحوا (تسلحوا) وخرج منهم جماعة يطلبوا (يطلبوه) فاتوا الى ماري قورقوس الكنيسة السفلى فداروا فيها كلها خارج وداخل وفوق واسفل وهو جالس والراهبين معه ولم يروه . لان الله غطى اعينهم فلم يروه . وكانوا يرجموه (من الرجم اي الظن غيباً) ولا يصيبوه ولا يرجم الله اياه فلما رأوا ذلك الرهبان قالوا له ان الله لم يحب ان يظهر امرك اليوم لعلم ولو علم انك تصير بصيرا لعم لهذا لاظهرك فاذا لم يريد الله ان يظهر امرك فلا تقاتلن امر الله . فقام ثلثة ايام بالرملة ثم انطلق الى الرها فصلى ورجعوا الى الطور .

وصادفوا رأس الدير قد تنيح . فتحملوا عليه كلهم وصيروه رأس على طورسينا وقيسا وكان اسمه عند الرهبانية عبد المسيح . فاقام رئيس الدير سبعة سنين على طور سينا . فتحامل صاحب الخراج على الطور سنة من تلك السنين في الخراج وعلا جوره . وكان اذ ذاك خراجهم الى فلسطين . فخرج هو ورهبان معه يريد الرملة حتى اذا صاروا برحلة يقال لها عصيان لقي رفاق الحجاج قد انصرفوا من حجهم فبينما هو يدور في الرفقة اذا قد لقيه انسان من الحجاج فعرفه . فاذا هو قد كان رفيق له بالنزو سنين فتعلق به وقال له ألست انت قيس النصراني . فقال له ما ادري ما تقول . فصيّح وجلّب فاجتمع لصياحه جميع اهل الرفقة . فقال لهم هذا الراهب كان معي في النزو سنين يصلي معنا ويصلي بنا . رجل من العرب . وقد كان رفيق لي . وقد اصابته ضربة في عنقه . فتفتشوا عنقه فان لم تجدوه كذلك فانا كاذب . واتهم وثبوا اليه كلهم وكلموه . وانكر ورأوا الاثر في عنقه . فقيدوه بقيود الدواب وضمنوه الرهبان اصحابه . وكانوا ثلثة فحملوه .

فلما كان الليل طلبوا اليه الرهبان ان يفر ويدعهم يعملوا بهم ما ارادوا . وقالوا له نحن يا بونا نضع نفسنا دونك . فأبى وقال انا احق ان أقتل دونكم . فلما صاروا من الرملة على مرحلة

---

١) هو يوحنا الثاني وهو ما يدل على ان عبد المسيح النصراني استشهد في ايامه . اي بين سني ٧٠٦ الى ٧٣٥

ركب ذلك الملعون الى الرملة فجمع جماعة ودخل الى الوالي فاعلمه بالذي كان من امر الراهب فارسل معه خيل حتى تلقوه في الطريق واتوا به الى الرملة . فأدخل على الوالي وكلمه وقال له استحي لنفسك فانك رجل من اهل بيت . فقال عبد المسيح احيا من الحي المسيح ارجب علي من الحيا من الناس . فاقبل ما احببت فطلب عليه الشهادة فشهد عليه كثيرين زور لا يعرفوه . على شهادة الذي عرفه فحبسه ثلاثة ايام ثم اخرجه فعرض عليه دينه . فلم يسمع منه الا ما نكره . فامر بضرب عنقه . فلما ضرب عنقه امر ان يُوارَى عن النصارى ويُحرق فاخذوه وحملوه الى بير بالنة كانت قد خربت والقوا جسده فيها والقوا عليه حطب كثير ونار . فاحرقوه فيها يروا ومضوا وتركوه وكانوا كثيرين الارصاد له الّا يأتي احد من النصارى فيخرجه . فلما مضى لذلك تسعة اشهر اقبلوا رهبان دير طور سينا وكلموا اقوام من اهل الرملة فجزعوا من ذلك جدًا للسلطان وليعد البير لان طولها كان نحو من ثلثين قامة . الى ان خاطر في ذلك عشرة رجال اشدا شباب . فهيّوا حبال وقنة قفير (زنبيل) كبيرة . واتوا الى الكنيسة السفلى فباتوا حتى اذا ناموا الناس اخذوا شمعة وانطلقوا ومعهم الرهبان فربطوا الراهب الواحد في الحبل والقفير ودلّوه وفي يده الشمعة والنار . فلما وصل اسفل (f°105a) اسرج الشمعة وفتش على قدر ركبة رماد كانوا القوا عليه . فاول ما بدا له منه جمجمة راسه . وهي تضي يضا كالثلج ثم اخرج البقية فاصابه لم يحترق من النار البتة منه جزو . ففرح وعجب فخبى معه ذراع واحد من عظامه . ثم القى كل شي في الزنبيل . فلما اصعدوا العظام تخطفوها كلهم وهربوا به الى الكنيسة السفلى . وتخلفوا ثلثة من القوم فرفعوا الراهب فلما صعد انطلق حتى اتوا جميع الى باري فورقس فوجدهم يتنازعون عليه فلم يزل ينازعهم حتى اعطوه راسه وتركوا له الذراع الذي اخذه في البير . فدفنوه في دياقونيقون (١) (diakonikon) الكنيسة الّا الساعد والساق امسكوه ليخرجوه للناس يتبركوا به . وانطلقوا الرهبان بما اخذوا حتى وصلوا به الى الطور وعملوا له عيد في الطور وبالرملة في السر وسبحوا جميع المسيح الذي له التسبحة مع ابيه وروح قدسه الى الدهر امين . (f°105b)

---

١) الدياقونيقون خزانة اواني الكنيسة والبيتها تكون تحت إشراف الشماسة .

اللعنات والحروم

في وقفيّات المخطوطات النصرانية

من تتبّع اليوم المخطوطات النصرانية المحفوظة في الخزائن الغربية يجد قسماً منها كان قبلاً موقوفاً في الشرق على الكنائس والاديار . ثم عبثت به ايدي الاطماع وصروف الدهر ففارق اهله وخرج عن مكانه. دون ان تهول مختلسيه وبائعيه ما ورد فيه من الوعيد بالويل والثبور. والتهديد بالمنع والقطع لكل من نقض شرطه وانتهك حرمته. وقد اختلفت الفاظ الوقفيات واللعنات فيها باختلاف المدن والملّل ولعل نقل جانب منها على سبيل التمثيل لا يخلو من فائدة ونكتة.

ومن احباس الروم الملكيين في منتصف القرن الخامس عشر ما خطّه مرقس اسقف صيدنايا في كتابه التريودي بالسريانية من كتب دير القديس خريسطوفورس فيها بعد ان استردّه من تَركة بعض مستعيريه . قال بلفظه :

« . . . هو وقف مؤبد . وحبس محرم . على الدير المذكور . فما لاحد سلطان من الله تعالى . يخرجه عن الوقفية بوجه من الوجوه . ولا ببيعه ولا يوهبه . ولا يقايض فيه . ومن تجاسر وفعل غير ذلك . كان محروم مفروز من مجد الله تعالى . ومن الرسل الاطهار . ومن سبع مجامع المقدسة . ومن الرسل الاطهار . ومن تجاسر وقطع الورقة كان له نظير ذلك . وكتب مرقص الاسقف المذكور بتاريخ ثامن شهر ادار المبارك ستة ستة آلاف وتسماية اربعة وخمسين لكون العالم (١٤٤٦ م) والمسيح قد دايماً »[1]

وعلى هذا المنوال جرى اكثر من جاء بعد مرقص من رجال الدين. وقلّدوه خصوصاً في ذكر المجامع السبعة حتى من كان اقربهم الى الكثلكة واشدهم ميلاً الى رومة نظير البطريرك افتيموس كرمة. وهذا نصّ ما كتبه في تعليق له على انجيل حبسه على « دير القديسة الكلية الحكمة الست كاترينا داخل القدس الشريف » قال :

« . . . فما لاحد سلطان من الله تعالى ان يغيره عن الوقفية المذكورة بوجه من الوجوه . او بحيلة من الحيل . او ببيعه . او يشتريه . او يقايض فيه . او يختلسه لنفسه . او يخرجه عن الوقفية المذكورة . الى ان يرث الله تعالى الارض وما عليها . وهو خير الوارثين . وكل من

---

١) راجع صورة هذه الوقفية بتوقيع مرقص في كتابنا تاريخ صيدنايا ص ١٥٦

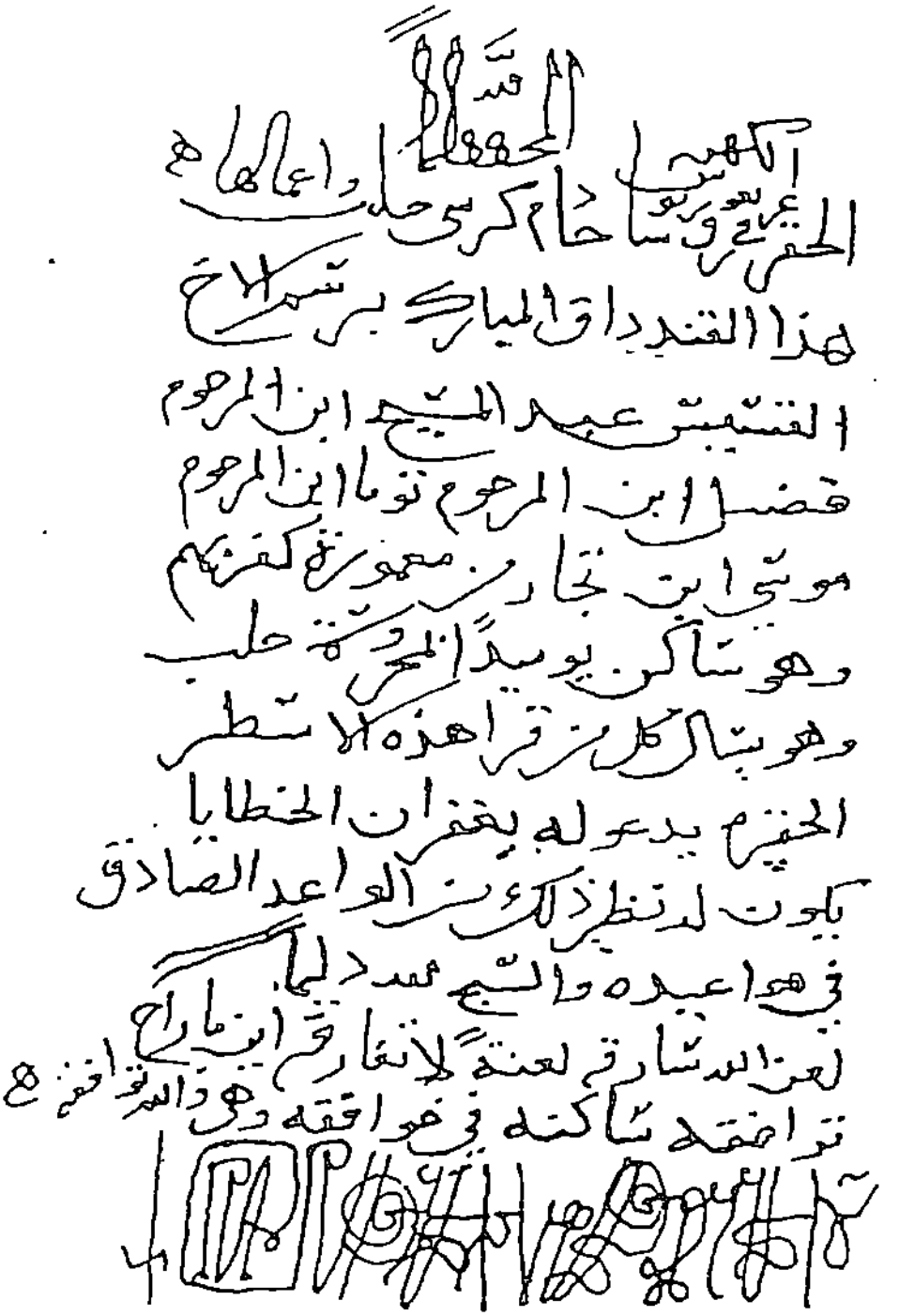

من خط المطران غريغوريوس فضيل

تعدّا ما حددناه . وخالف ما سطرناه . كائناً من كان . يكون ذلك الانسان . غضب الله ورجزه عليه . وعلى هامته وجسده وسائر تصرفاته . ويكون محروم مفروز من السبعة مجامع المقدسة . ومن قم ربا كهنة الدنيا . ومن في انا الحقير افتيموس البطريرك الانطاكي وسائر المشرق . وكل من وصل ليده هذا الكتاب الشريف من غصب او سلب . او خطف او سرقة . وما يستنكه ويرده الى مكانه . يكون نظير سارقه . والويل لمن رضي لنفسه ذلك .

تحريرًا في اوائل شهر اذار سنة سبعة الاف مائة اربعة وخمسين لآدم (١٦٤٦م) ولربنا المجد » (١) .

واستقر هذا الاسلوب قاعدة مشى عليها في حلب خلف البطريرك المذكور المطران ملاتيوس الزعيم وهو المشهور بالبطريرك مكاريوس الحلبي . وكان ينسخ معظم عباراتها في وقفياته . ومنها ما جاء له على كتاب المجامع او كما يسميه الناموس الذي حبسه على تلّية المطرانية سنة ١٦٤٣ وهو محفوظ اليوم في خزانة الڤاتيكان رقم ١١١

وامتاز بعض اساقفة حلب بالإغراب في اللعن والدعاء على من يستبيح وقفاً لهم . ومن اظرف ما وقفنا عليه من كلامهم ما خطّه بيسينه غريغوريوس فضيل الرومي الملكي . وهو من سبقت لنا اشارة اليه في مقالة سابقة(٢) . وكان نادرة من نوادر القوم : كتب مرة على مخطوط يعرف عندهم بالقنداق رقم ٤٧ من مخطوطات الڤاتيكان :

« لعن الله سارقه . لعنة ٧ تفارقه . اين ما راح ترافقه . ساكنة في خوانقه . وهي رافقه ترافقه » (f° 102).

ومثل هذا القسم بالله من فم المطران احلى من المآء على لهاة الظمآن . ولكي لا تفوت القارئ بعد سماعه هذا السجع الرقيق ، لذة النظر الى خطه الانيق ، رأينا ان نرسم بجانبه صورة هذه الصفحة الفريدة من قلم المطران . وفي ذيلها توقيعه بالشكل الرومي monocondyle

ومن الشدة والغرابة ايضاً ادعية المطران برمانوس فرحات الماروني في وقفية الكتب التي خص بها كنيسة مار الياس بحلب للموارنة سنة ١٧٣١ قال بلفظه :

١) خزانة الحبر المقدس رقم ٢٧

٢) خطايا الروم الملكيين بحلب في القرن السابع عشر . المخزانة الشرقية (المشرق ٣٦ [١٩٣٢] ٣٢-٤٠)

« . . . كل من يتبرعا عن هذه الوقفية . . . فليكن مربوطًا . . . محرومًا مسخوطًا مرذولًا . . . مقطوعًا من جد الكنيسة الرومانية . ويكون بيته مثل صادوم وعامورا . ويذهب رزقه . وبيتهم بيته . وتتحذ اولاده من ابواب الملاعين . . . » [1]

وهذه العبارات الاخيرة وحدها كافية للدلالة على منشإ أسرة المطران في جبل لبنان.

ومن موقوفات دير المخلص للرهبان الملكيين التي انتقلت الى الخزائن الغربية بعض مخطوطات لا نود ان نشير الا الى اثنين منها فقط لفائدتهما الطقسية . وكلاهما اليوم في خزانة الڤاتيكان . وهما :

الاول . « باركليتكون » اي كتاب المعزّي . بالسريانية والعربية . رقم ٣٢٩ كتب سنة ٧٠١٧ لآدم اي ١٥٠٩ للمسيح . وعليه بخط حديث

« وقف دير المخلص من المعلم لطفي بن موسى ديب الشامي سنة ١٧٠٧ مسيحية »

الثاني « انتولوجيون » ويسمونه « كتاب المعيّد » بالسريانية الملكية رقم ٣٥١ عليه وقفية بقلم القس حبيب ابن الاسقف مقاريوس من مدينة قارة . ومطالعة بخط « المنير في روما الكهنة جرمانس مطران بعلبك » بتاريخ ٢٣ ايار سنة ٧٠٩١ لآدم اي ١٥٨٣ للمسيح

وفي اسفل الصفحة الخامسة منه هذه العبارة « قد انتقل الى دير المخلص سنة ١٧٣٠ »

وفي هاتين الوقفيتين شاهد صريح بوجود بعض من رهبان الدير كانوا يقرأون السريانية ويصلون بها طقسهم البيزنطي . ولا غرو فقد كان منهم غير واحد من اهل معلولا وصيدنايا وسائر القرى التي كانت الارامية لا تزال لغة باقية فيها في اوائل القرن الثامن عشر . ويستدل من المخطوط الثاني ان كنيسة الروم الملكيين في بعلبك وما يضاف اليها من كنائس القرى كانت تتلى فيها الصلوات بالسريانية الملكية . ولدينا في المعنى نفسه عدة قيود اخرى من مخطوطات دينية تدل على انتشار السريانية في كنائس اسقفية بعلبك . وليس هنا محل استيفائها .

---

١) مقالة للخوري ابرهيم حرفوش : مكتبة طائفتنا المارونية في مدينة حلب المحمية (المشرق ١٧ [١٩١٤] ٣٤)

لُعَب الشياب

من معاني اللعبة في اللغة التمثال. واكثر ما كانت تصنع على شكل الجواري والولدان وتكسى وتزين وتروق باجمل زي والطف ذوق. ولذلك كانت تشبه بها النساء الحسان والغلمان الرُوقة والطرائف النادرة وكل بديع مستملح محبب الى القلب. وهو نفس المعنى الذي يراد بلفظتي poupée, joujou وفي كتاب الف ليلة وليلة في الكلام على مصر «نساؤها لُعَب.»[1] ولمازن بن عمرو بن عاصم من شعرآء الاندلس يتغزل بغلام نصراني :

قد تاه قُرطانه بتهدي صدره وزهى بلعبة خصره زناره(٢

ومثله لفاتك السراجي من شعرآء اليتيمة في غلام يهواه :

يا لعبة اوقعت على كل اللعب قد مستني بعدك بؤس ونصب(٣

ومما تروق جدًا معرفته ان الشرقيين في عهد الخلافتين العباسية والفاطمية سبقوا الغربيين في اتخاذ الدمى على قدر الاجساد لوضع الثياب عليها ودعوها لعب الثياب mannequins وتأنق الامرآء والاغنيآء في استعمالها فجعلوها ايضاً من العنبر لتعبق الثياب بطيبه من ملابستها. ولما قُتل الافضل شاهنشاه امير الجيوش بمصر سنة ٥١٥ للهجرة (١١٢١ م) «وجد له من الذخائر النفيسة ما لا يحصى. ومنها لعبة عنبر على قدر جسده يرسم ثيابه لوضع ثيابه عليها لتكتسب رائحتها.»[4] وتنقل مثل ذلك ابن ميسر في اخبار مصر[5].

وكانت امثال هذه الدمى في بغداد تصطنع كذلك من الرخام والمرمر. وروى اسحق الموصلي في هذا العدد نكتة حدثت لعريب المشهورة جارية المأمون قالوا وكانت تتعشق ابن حامد ويتعشقها وقد نزل مرة الى جانب المأمون

---

١) Édition Breslau (1825 et suiv.) II, 190, 1

٢) يتيمة الثعالبي (طبعة مصر) ٢ : ٢٦

٣) يتيمة الثعالبي (طبعة مصر) ٢ : ١٧

٤) مجلد من غاية الارب للنويري. خزانة ليدن Arab. 2b Gol. f°126

٥) الجزء الثاني من اخبار مصر، ص ٥٧، وفي المتن المطبوع : «ليكتسب الراحة»

في بعض اسفاره . فلما وجدت عريب غفلة حولها عمدت الى مثال رخام فوضعته تحت الازار في مكانها من الفراش بحيث يُرى من بعيد فتُحسب انها نائمة . وصعدت من السطح وتدلّت الى منزل حبيبها . وطلبها بعد ذلك المأمون قبل ان ترجع فلم يجدها فعلم الى اين صارت . فقال عيسى بن عبدالله بن اسمعيل المراكبي من ابيات فيها :

قائل الله عريبا فعلت فعلاً عجيبا
ركبت والليل داجٍ مركباً صعباً اربيا
رعت الليل فلما اقتنص الليل الرقيبا
مثلت فوق حشا ياها لكي لا تستريبا
بدلاً منها اذا نُو دي باسمٍ لا يجيبا
ومضت يحملها الهو ف قضيباً وكثيبا
فتدلّت لمحب فتلقاها حبيبا (١

المشجب

هو الخشبة المشبّكة توضع عليها الثياب[٢] . ويقال لها ايضاً الشِجاب porte-manteau . قال احد الشعراء يمدح فقره :

الحمد لله ليس لي مال ولا تخلق علي افضال
المتان بيتي ومشجبي بدني وخادمي والوكيل بتأل (٣

ولآخر . انشده ابو العيناء للمعتصم :

والرأس ممدود على المناكب مدّ التباطيّ على المشاجب (٤

ويؤخذ من هذين الشاهدين ان المشاجب كانت شائعة في البيوت والحوانيت . وفي قول الثعالبي انها الخشبة المشبّكة دليل على انها كانت تضمّ وتصلّب لتوضع

١) السادس من كتاب بغداد لاحمد بن طيفور ص ٢٠٧–٢٠٨ ؛ والاغاني للاصبهاني (طبعة برلاق) ١٨ : ١٧٤

٢) فقه اللغة للثعالبي (المطبعة الكاثوليكية) ص ٢٥٧

٣) المحاسن والمساوئ للبيهقي ١ : ٢١٧

٤) المحاسن والمساوئ للبيهقي ١ : ١٨٧

عليها الثياب والانسجة . واكثر ما كانت تكون من عودين متساويين متعانقين عناق اللام للالف في الخط القديم لا وعليهما مسامير يعلق عليها ما يراد تعليقه . وهو ما يستفاد ايضاً من رواية الخطيب البغدادي في كتاب البخلاء . قال « قيل لابي الحارث جمين مرة : بلغنا انك صرت الى نصر بن رستم . فكيف وجدته قال « مشجب » . قيل وما معنى مشجب . قال من اين جئته رأيت لا » .[1]

وقد تكون هذه الخشبات المنصوبة اعوادًا تدق في الجدران . ولذلك سماها الاصبهاني اوتادًا في كلامه على عبد الحكم بن صفوان الجمحي . قال « اتخذ بيتاً وجعل فيه اوتادًا . فمن جاء علق ثيابه على وتد منها . »[2]

وربما كانت هذه الاوتاد من حديد . ولذلك دعيت احياناً « مسامير » وان خالفتها في الشكل . وكان الوزراء والمترفون يتخذونها من الذهب حباً بالترفع والبذخ . ويتنوقون في صنعتها ويوزعونها في الحُجر والمجالس لكثرة ما كانوا يقتنونه من العمائم والاكسية والمناديل والديباج . فضلًا عما يجعلونه منها في حُجر نسائهم وحظاياهم . قيل ان امير الجيوش الافضل شاهنشاه بمصر كان في تركته منها بعد مقتله في رمضان سنة ٥١٥ (١١٢١ م) « عشرة مسامير من الذهب زنة كل مسمار مائتا مثقال . عليها العمائم المختلفة الالوان مغطّاة بالمناديل المزركشة . . ووجد له ثمان مائة جارية . منهن حظايا خمس وستون . لكل جارية حجرة وخزانة مملوءة من الكساوى والآلات والديباج والذهب والفضة . ومن كل صنف . »[3] ولا شك انه كان في كل حجرة مسمار واكثر .

وقد بالغ ابن خلكان في مقدار هذه المسامير كعادة كتاب العرب في المجازفة بالارقام . وزعم ان الذي خلّفه الافضل كان « مائة مسمار من ذهب . وزن كل مسمار مائة مثقال في عشرة مجالس . في كل مجلس عشرة مسامير . على كل مسمار منديل مشدود مذهب بلون من الالوان . ايا احب منها لبسه . »[4]

---

١) كتاب البخلاء . خزانة بريتش موزيوم . لوندرة Or. 3139 f°16a

٢) الاغاني ٦ : ٥٢

٣) مجلد من غاية الادب للتوبري . خزانة جامعة ليدن Arab. 2l Gol 126

٤) وفيات الاعيان ، (طبعة وستنفلد) ، ١ : ١٠٨